المجلة الجزائرية للمخطوطات المجلد 16 / العـدد: 1 جوان 2020، ص 7– 22

الصناعات الدوائية والطب الشعبي بمنطقة توات خلال القرنين 12 و13 الهجريين

دراسة من خلال الوثائق المحلية المخطوطة

Pharmaceutical industries and traditional medicine in Touat region during the 12th and 13th centuries AH Study through local manuscript documents

بعثمان عبد الرحمن*

جامعة أدرار (الجزائر)، baotman1980@univ-adrar.dz

تاريخ الإرسال: 2020/04/15، تاريخ القبول 2020/09/21، تاريخ النشر 2020/10/10

ملخص:

تعد صناعة الدواء والطب الشعبي خلاصة لخبرات المجتمعات حيث انفرد بهذه الحرفة أناس متخصصون لجأ إليهم العامة للاستطباب حيث تكوّن لهؤلاء معرفة تراكمية بكيفيات صناعة الدواء وفوائد الأعشاب الطبية المحلية وقد أفلحوا في علاج الكثير من الإمراض المستفحلة. ويفيدنا المخزون الوثائقي الموجود في منطقة توات بالجنوب الغربي الجزائري بكم هائل من المعلومات حول سبل الاستطباب وأنواع الأمراض المستفحلة في مجتمع توات خلال القرنين 18 و19. ومعظم هذه الوثائق عبارة عن قصاصات معدة كوصفات طبية مقدمة من طرف الطبيب المعالج أو تقييدات على الوجوه الباطنية لأغلفة الكتب وفي أحسن الأحوال فوائد واستطرادات داخل كتب فقهية أو قصائد. ويمكن من خلال استثمار هذه المادة الوثائقية تكوين صورة واضحة عن أهم الصناعات الدوائية والطب الشعبي ورواده بمنطقة توات خلال الفترة المدروسة.

الكلمات المفتاحية: توات ، الاعشاب الطبية ،المخطوطات ، الطب الشعبي،

*المؤلف المرسل

Abstract:

L'industrie de la médecine et la médecine traditionnelle sont un résumé des expériences des sociétés, car des personnes spécialisées ont été choisies pour ce métier, et le public s'y est réfugié pour l'indication, car ils ont accumulé des connaissances sur la fabrication de médicaments et les bienfaits des herbes médicinales locales et ont réussi à traiter de nombreuses maladies avancées. Le référentiel documentaire situé dans la région de Touat au sud-ouest de l'Algérie nous fournit une mine d'informations sur les indications et les types de maladies exacerbées dans la communauté touât aux XVIIIe et XIXe siècles. La plupart de ces documents sont des bribes préparées sous forme d'ordonnances fournies par le médecin traitant ou de restrictions sur les faces ésotériques des couvertures de livres, et, au mieux, de digressions dans des livres doctrinaux ou des poèmes. En investissant dans ce matériel documentaire, il est possible de se faire une image claire des industries pharmaceutiques et de la médecine populaire les plus importantes et de leurs pionniers dans la région de Touat pendant la période étudiée.

Keywords: Touat, herbes médicinales, manuscrits, médecine populaire

1- المقدمة

يكتسي موضوع صناعة الأدوية والطب الشعبي أهمية بالغة في حقل الدراسات المونوغرافية للمجالات الواحية، حيث يعتبر خلاصة الخبرات التي اكتسبتها مجتمعات هده المناطق، حيث فرد بهده الحرفة أناس متخصصون لجأ إليهم السكان من اجل العلاج، وقد اكتسب، هؤلاء بفعل تراكم الخبرات، مقدرة عجيبة لتشخيص الداء ووصف الدواء للمرضى انطلاقا من الأعشاب الطبية المتواجدة في المنطقة، ويفيدنا المخزون الوثائقي الموجود على مستوى خزائن منطقة توات بالجنوب الغربي الجزائري، بكم هائل من المعلومات حول سبل الاستطباب وأنواع الإمراض المستفحلة في مجتمع توات خلال القرنين 12 و13 للهجرة، ومعظم هذه الوثائق عبارة عن قصاصات معدة كوصفات طبية مقدمة من طرف الطبيب المعالج أو تقييدات على الوجوه الباطنية لأغلفة الكتب وفي أحسن الأحوال فوائد واستطرادات وفوائد داخل كتب

فقهية أو قصائد، وسنحاول في هذا المقال استثمار المادة الوثائقية في استقصاء الحالة الصحية لساكنة توات في القرنين 12و13 للهجرة، وبيان أهم الخلطات الدوائية التي كانت تستعمل في علاج الحالات وإلى أي مدى أسهمت هذه العلاجات في تحسين الحالة الصحية ومعالجة الإمراض المنتشرة في المنطقة ؟.

2- التعريف بمنطقة توات:

تتربع منطقة توات على مساحة واسعة من جنوب الصحراء الكبرى الأفريقية، وكانت على مدى تاريخها مركز ثقل اقتصادي، وقطبا حضاريا بارزا، ذلك أن وقوعها على نقطة تقاطع طريق الحج المغاربي[1] وطريق تجارة السودان[2] مكنها من تبوء تلك المكانة الاستراتيجية الهامة التي أهلتها لتكون الممر الحتمي لمختلف لقوافل التجارية وركاب الحجيج. وتضم ثلاث مقاطعات كبرى وهي: قورارة ، توات الحناء، تيديكلت، و يحد الإقليم من الشمال الغربي العرق الغربي الكبير و وادي الساورة، و من الغرب عرق شاش و واد ي مسعود، و من الجنوب صحراء تنزروفت وهضبة مويدر[3] ومن الشرق والشمال العرق الشرقي وهضبة تادمايت، أما فلكيا فتقع المنطقة بين خطي طول 1 0 شرقا و 03 غربا، و بين دائرتي عرض 20 إلى 30 شمالا، و بالتالي فإن خط غرينتش و دائرة مدار السرطان يتقاطعان منطقة توات[4].

يتوزع الإقليم على ثلاثة مناطق من الشمال إلى الجنوب و هي على النحو التالي:

---

1 . مر به العياشي (ت 1090هـ / 1679م) في طريقه الى الحج حيث مر ركبه عبر سجلماسة داخلا توات عبر شمالها الغربي حيث مقاطعة تسابيت ومنها الى أوقروت ثم إلى غدامس عبر صحراء الجنوب الشرقي للجزائر "ورقلة " ، ينظر : العياشي عبدالله بن محمد، ماء الموائد ، دار السويدي للنشر والتوزيع أبوظبي: ، الطبعة الاولى ، 2006، . الجزء 107/01.

2 .أشار ابن خلدون إلى أهمية هذا الطريق التجاري الرابط بين توات وبلد السودان، حيث كانت القوافل التجارية تمر الى السودان عبر بلاد بودة إلى ولاتة ومنها ألى تنبكتو، ولكن بفعل انعدام الامن بهذا الطريق فضل التجار المرور عبر تمنطيط ومنها الى بلاد السودان حيث يقول : ولقد كانت بلد بودة وهي أعلى تلك القصور بناحية المغرب من ناحية السوس هي الركاب إلى والاتن، الثغر الأخير من أعمال مالي، ثم أهملت لما صارت الأعراب من بادية السوس يغيرون على سابلتها ويعترضون رفاقها، فتركوا تلك ونهجوا الطريق إلى بلد السودان من أعلى تمنطيط" ينظر : عبد الرحمن ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر،ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، 1421هـ/2000م، ج6/ص78.

3 – حوتية محمد الصالح، آل كنتة ، دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة الجزائر : ، ار الكتاب العربي، 2008، ص 31

4 – مبارك جعفري: العلاقات الثقافية بين توات و السودان الغربي خلال ق 12هـ ، الجزائر: دار السبيل ، ط1، 2009م، ص 32.

وتسمى أيضا قورارة و تكورارين وتعني بالبربرية " المعسكرات" أو "المخيمات"[5]، غير أن هنالك رأيا آخر يتبناه لسان أهل المنطقة، حيث يقول العارفون باللسان الزناتي أن أصل الكلمة من لفظ " أقرو" بالجيم القاهرية، ويطلق على الحفرة المزروعة وسط الرمال، ولايزال اللفظ متداولا عند سكان واحات طلمين وأجدير وقصر قدور، وهذا ما يعني أن تعمير المنطقة كان بإنشاء البساتين وواحات النخيل أو ماتعرف عندهم بـ " أقرو " ثم استحدثت حولها تجمعات سكانية أطلق عليها " أقراو " بمعنى التجمع وجمعها تيقراوين أو تيمقراوين أي التجمعات. والتي حرفت بعدها إلى تيقورارين وتينجورارين[6]. وتمتد تينجورارين، بحسب ابن خلدون، على مسافة عشر مراحل من تلمسان ، في بسيط وادٍ منحدر من المغرب إلى المشرق ،غاصّة بالسكان، مستبحرة في العمران، وبأن قصورها[7] كثيرة تقارب المائة، وسمّاها تيكورارين [8].

أما الحسن الوزان، فيصف نخيلها وكثرة قصورها فيقول: "منطقة مأهولة بالسكان بين حدائق النخيل، ذات أراض كثيرة صالحة للزراعة إذا ما تم تسميدها بالسماد ، مشتملة على ما يقرب من خمسين قصرا وأكثر من مائة قرية [9] أما المؤرخ التواتي البوداوي الجعفري فيقول عنها " وفي شرق تسابيت قصور تيكرارين تنتهي إلى ثلاثمائة أو أكثر ، في واد واحد ينحدر من المغرب إلى المشرق "[10]. وتنتشر قصور تيكورارين مابين تابلكوزة شمالا إلى المطارفة جنوبا .

---

5 . ثياقة الصديق، نمط العمارة القصورية ومراحل الاستيطان البشري بإقليم توات ، أعمال الملتقى الوطني الأول المشترك بين جامعتي أدرار وتيارت : العلاقات الحضارية بين إقليم توات وحواضر المغرب الإسلامي ، جامعة أدرار : 14 أبريل 2009 م ص 109 .

6 . الفاطمي محمد، باحث في التراث اللامادي لمنطقة تيميمون، مقابلة شفوية، بشار يوم 12 جوان 2015.

7- القصر في الصحراء فضاء مشترك بين مجموعات بشرية ، ذات مصلحة واحدة أو انتماء واحد . أمّا القصبة فهي قلعة يحيطها سور ، مشيّدة على أساس دفاعي ، وهي جزء من القصر . ينظر : محمد بن سويسي ، العمارة الدينية في تمنطيط، مذكرة ماجستير في الآثار الإسلامية، جامعة الجزائر ص 37 .

8 . ابن خلدون، المصدر السابق،ج07 /77

9. الوزان الحسن، وصف إفريقيا ، ترجمة : محمد حجي و محمد الأخضر ، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، 1983 م ، ط 2 الجزء 02 / 134 .

10. الجعفري، المصدر السابق، الورقة 08 .

– منطقة توات الوسطى: وتدعى توات الأصل وتمتد قصورها على ضفاف وادي مسعود وهي مركز توات ومقر رياستها، وتمتد من تسابيت إلى رقان وتترتب قصورها كالاتي: [11]. تشتمل على سلسلة مترابطة المقاطعات، كل مقاطعة تحتوي على عدة قصور أهمها تسابيت ، بودة، تيمي[12]، تمنطيط، فنوغيل، زاوية كنتة، أنزجمير، سالي، رقان[13]

– منطقة تيدكلت: اسم تدكلت هو اسم أمازيغي (بربري) معناه بالعربية (كف اليد)[14] تقع منطقة تديكلت بين توات الوسطى و هضبة تادمايت شمالا و هضبة مويدرا جنوبا[15]، و حَدّدها الشيخ محمد باي بلعالم بقوله: " الإقليم من فقارة الزوى شرق عين صالح إلى قصر تيمقطن"[16]، و تضم حاليا جزء من ولاية أدرار –أولف– وجزء من ولاية تمنراست – عين صالح و إينغر– وهي موزعة على اثنتي عشرة واحة، تشمل مجموعة من القصور ممتدة من الشرق إلى الغرب حسب فوانو(voinot)[17] وهم فقارة الزوى، فقارة العرب، إيقسطن، حاسي لحجار، فقارة الساهلة الفوقانية، الساهلة التحتانية، فقارة مليانة، إن صالح، إن غار، آولف، أقبلي. وأهم قصور الإقليم18هو قصر آولف[19]و قصور أقبلي و قصر تيط، و قصور إينغر، و قصور عين صالح[20]

---

11 – محمد باي بلعالم : الرحلة العلية إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام و الآثار و المخطوطات والعادات و ما يربط توات من الجهات، دار هومه، الجزائر، ج1، 2005 م ، ص 9.

12 – كلمة أمازيغية مركبة من مقطعين، و تعني مكان الأحرار. ينظر: محمد باي بلعالم: المرجع السابق، ج1 ص 20.

13 – محمد الصالح حوتية: توات و الأزواد خلال القرنين 12و 13 هـ دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية، دار الكتاب العربي، الجزائر، ج1 ،2007 م، ص 34.

14– تومي سعيدان: سكان تيديكلت القدماء والاتكال على النفس، دار هومة، الجزائر، 2005 م، ص 19. ينظر: عبد المجيد قدي: صفحات من تاريخ منطقة آولف، دار الأبحاث الجزائر، ط2، 2007 م، ص18.

15 – محمد الصالح حوتية: المرجع السابق، ج1، ص 35.

16 – محمد باي بلعالم المرجع السابق، ج،1 ،ص9.

17 -Voinot (Louis) : Le Tidikelt , étude sur la géographie, l'histoire et les Mœurs du pays, Ed Jacques Gandini,1995, P 30.

18 – للتوسع ينظر محمد الصالح حوتية: المرجع السابق ج1، ص 36.

19 – آولف كلمة أمازيغية تعني خلية النحل، أو وسط النخلة. ينظر: عبد المجيد قدي: صفحات من تاريخ منطقة آولف، دار الأبحاث الجزائر، ط2، 2007 م، ص 18. ذكرها الأغواطي (ت 1244هـ/ 1828م) في رحلته حيث بسط الحديث عن موقعها

3- الواقع الصحي في منطقة توات:

بفعل الموقع المنعزل في الصحراء، عانى الإنسان التواتي الكثير من المتاعب الحياتية، فالظروف المناخية الصعبة، وشظف العيش كانت من أهم الأسباب التي أسهمت في تردي الأوضاع الصحية للسكان، إذ الاعتماد الكلي على المحاصيل الزراعية المعايشة التي تسقى بماء الفقارات[21] التي تتطلب جهدا كبيرا في متابعتها وصيانتها، وعادة ما تتعرض المحاصيل الزراعية إلى السطو من طرف قطاع الطرق، حيث كانت المنطقة عرضة لهجمات القبائل المحاربة التي تهاجم المنطقة في أوقات نضوج المحاصيل لتستولي عليها بالكلية[22]، أو تفرض على سكان القصور ضرائب كانوا يدفعونها طواعية تسمى في المصطلح الفقهي بالمداراة[23]، كما أن المحاصيل المنتجة كانت أيضا محل أطماع المحلات القادمة من المغرب الأقصى والتي

و أهميتها إذ اعتبرها "البلدة الرئيسية في واحة توات، و لها نفوذ على المنطقة و السلطان فيها له جنود تضرب بين أيديهم الطبول، و له سلطة توقيع العقوبة و السجن، و هو يمتلك الخيول و الرجال، و لكن ليس له خزانة دراهم". أما بخصوص نباتها و مميزات سكانها فيقول: "و بلدة آولف محاطة بأسوار مبنية بالطين و فيها الماء الوافر و التمر، و للسكان عدد كبير من العبيد" ينظر: أبو القاسم سعد الله : المرجع السابق،ص ص 257- 258. و يرجع تاريخ اختطاط آولف إلى سنة 164هـ /781م بناء على ما حملته جدران احد مساجدها العتيقة الذي بجانب قصبة الفِزاريين من أولاد محمود وأولاد حمّد لمين ، حيث كان يحتفظ بكتابة تاريخ المسجد كلما أعيد ترميمه، و هو ما يؤكد أن قبيلة الفِزاريين هم أول من بنى هذا المسجد و استقروا بآولف . ينظر: محمد باي بلعالم، المرجع السابق، ج2، ص 333.

20 – اختلفت الآراء حول اسم إن صالح فمنهم من يقول: انه مرتبط باسم صالح باي (ت 1206هـ/ 1792م) حاكم قسنطينة في العهد العثماني، و هناك من يقول: أنها نسبة لواد كبير كان يسكنه الطوارق و يرعون فيه، وهناك من ينسبها إلى بئر حفره احد الحجاج اسمه صالح فصار يسمى على اسمه، و هناك من يقول أيضا أنها كلمة أمازيغية تبدأ بـ (إن) بدل (عين) مثل إنغر؛ و تعني الشعبة وهذا هو الأرجح لأن معظم القصور عين صالح أمازيغية. ينظر: تومي سعيدان: المرجع السابق، ص 24. محمد باي بلعالم: المرجع السابق ج2، ص 4. عبد الرحمن بن عمر التنلاني:الرحلة الحجية ، مخطوط خزانة الشيخ باي بلعالم ، آولف، الورقة 3 و. عبد الرحمن الجنتوري: نوازل الجنتوري، مخطوط بخزانة باعبد الله، تيمي، أدرار، الجزائر، الورقة 74و.

21 – الفقارات ينظر: عبد الرحمن محمد بعثمان، نظام السقي في الجنوب الغربي الجزائري: نظام الفقارة في منطقة توات أنموذجًا، دراسة من خلال المصادر المحلية.– دورية كان التاريخية (علمية، عالمية، مُحكَّمة).– العدد الثاني والعشرون؛ ديسمبر 2013. ص 144 – 150.

22 – بن هاشم ن مولاي أحمد ، المحن والشدائد ، خزانة مولاي سليمان بن علي ، أدغاغ ، أدرار، كله .

23 – بعثمان عبد الرحمن، نظام القضاء في منطقة توات، إشراف محمد بن معمر رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ والحضارة الاسلامية، جامعة وهران 2017، ص321

تفرض أيضا على السكان ضريبة تسمى البذرة[24] ، وبين هذا وذاك كانت محاصيل السكان القليلة تتعرض بين الفينة والأخرى إلى أو أسراب الجراد التي عادة ما تأتي على المحاصيل الزراعية قبل نضوجها مما يدخل المنطقة في أزمة غذاء ينجم عنها انتشار الأمراض المتعلقة بسوء التغذية، يصعب من الظروف المعيشة للسكان،[25] مما يودي إلى انتشار الأمراض الناجمة عن سوء التغذية وتفشي الهزال ونقص المناعة، كما أن الظروف المناخية الصعبة التي تجتاح البلاد في مختلف فصول السنة كانت تؤدي أيضا إلى ظهور بعض الأمراض مثل أمراض العيون نتيجة الغبار الناجم عن الرياح العاتية، وإمراض السل والجدري والقوب (حبوب صديدية في الرأس) نتيجة غياب النظافة بفعل ندرة الماء وصعوبة حمله إلى البيوت، وتقدم المصادر بعض المعلومات الهامة حول الأمراض المتفشية في المجتمع التواتي كأمراض الشقيقة والأمراض المعدية وألا لام المفاصل وإمراض النساء، حيث تستعمل الأعشاب المحلية والمجلوبة من مناطق مختلفة كبلاد السودان ومدن شمال بلاد المغارب.

4- أهمية الوثائق المحلية في الدراسة:

إن أهم مصدر لدراسة موضوع الصناعات الدوائية والطب الشعبي بمنطقة توات، هي الوثائق حيث تذخر الخزائن التواتية بمئات من الوثائق التي تحوي مادة جزيلة عن العلل وأدوائها وهي بلا شك نتاج تراكم الخبرات والتجارب التي اكتسبها أهالي المنطقة جراء تعاملهم مع الأمراض المختلفة، والتي وصلت إلينا عن طريق تدوينها من قبل العلماء والشيوخ الذين كانوا في الكثير من الأحيان يجمعون بين مهنتي الطب والتعليم والوعظ والإرشاد.

من خلال البحث عن الوثائق التي تخدم الموضوع في الخزائن التواتية، أدركنا أن الوصول إليها صعب جدا، خاصة وأن الخزائن في معظمها غير مرتبة، ويصر الكثير من ملاكها على إخفاء الوثائق نظرا لأهميتها البالغة واختلاطها في الكثير من الأحيان مع الوثائق الأهلية وعلى هذا الأساس يمكن تقسيم هذه الوثائق المخطوطة إلى ثلاثة أقسام :

24 – بن هاشم، المحن والشدائد ، ورقة، كله .

25 – وثيقة منسوبة لعبد الرحمن التنلاني عن الكوارث الطبيعية التي حلت بمنطقة توات، تحت يدي .

أولا: وثائق بشكل جذاذات : تعد من أهم الوثائق انتشارا في الخزائن التواتية، وهي في معظمها أوراق صغير جدا تكتب فيها الخلطات الطبية بخط دقيق نوعا ما، حيث يكتب الطيب الوصفة ويبين فيها نوع المرض المقادير وكيفيات المزج والجرعات التي يأخذها المريض، ثم يجري ثنيها ويتسلمها المريض أو مرافقه، ومن أهم الخزائن التي تحوي كما هائلا من مثل هذه الجذاذات خزانة زاجلو بمنطقة زواية كنتة وخزانة أشراف أولاد السي حمو بلحاج بزاوية كنتة[26] .

ثانيا: التعاليق على الدفوف الداخلية للكتب : للدفوف الداخلية للمخطوطات أهمية بالغة في حقل البحث في التراث، إذ عادة ما توفر لنا معلومات قيمة، حيث نجد فيها جرائد المواليد وقوائم الديون والاعارات وبعض الأحداث الهامة التي يكتبها صاحب المخطوط على الدفة الداخلية للكتاب من أجل تذكير نفسه أو غيره بذلك الحدث، وفي الكثير من الأحيان بعض المعلومات الهامة حول الأدوية والوصفات الطبية الموجهة لعلاج بعض الأمراض، إذ يرجح أن الكاتب كتبها على سبيل التذكير وعدم النسيان أثناء جلسة علمية، حيث تذخر الخزائن التواتية بمثل هذه الأصناف من الوثائق، غير أن الغلاف قد يتعرض في الغالب إلى التلاف بفعل العوامل الخارجية، مما يجعل الوصول إلى مثل هذه المعلومات واستثمارها صعبا[27] .

ثالثا: الفوائد ضمن متون وطرر الكتب: يتكرر هذا الصنف بكثرة في المخطوطات التواتية، إذ يقوم المؤلف في أثناء تأليف الكتاب بذكر بعض الفوائد التي تكون في الكثير من الأحيان خارجة عن متن المؤلف، وقد تكون قصصا أو حكما أو ملح ومستظرفات ووصفات طبية لبعض الأمراض الشائعة، حيث نجد في كتاب الجامع لفتاوى التنلاني الكثير من الفوائد التي تحمل مثل هذا الطابع، منها واحدة أشار فيها إلى علاج الشقيقة التي يمكن أنها أرهقته فاختار تدوينها في كتابه من أجل إفادة المطلع. وإضافة إلى ذلك هناك مواضع أخرى نجد فيها فوائد طبية ضمن المخطوطات وهي الطرر والحواشي التي يستغلها المؤلف أو الناسخ أو حتى القارئ من أجل كتابة بعض الأدوية لحالة مرضية شائعة، كأمراض المعدة والصداع ومن

26 – وضعية هذه الوثائق صعبة جدا لأنها فردية ومعرضة للإهمال لذى فأكثرها توجد ضمن مجاميع وبين صفحات الكتب .

27 – توجد نماذج كثيرة في خزانة سيدي علي بن حنيني بزاجلو .

أمثلة ذلك ما نرصده في كتاب غاية الأماني في أجوبة التنلاني من الحديث عن مسألة لعلاج الشقيقة وهو صداع الرأس النصفي[28] كما تحتوي بعض الخزائن التواتية على كتب الطب المختلفة منها ما هو لمؤلفين محليين ومنها ما لغيرهم، حيث يحضر بقوة كتاب حديقة الأزهار في الأعشاب والعقار لأبي القاسم بمن محمد الوزير الغساني، وشرح على منظومة طبية في البقول والأعشاب وكتاب في الرقية والعزيمة وعدة تقاييد لمؤلفين محليين مثل ما نجده على كتاب في الطب بخط الفقيه عبد الرحمن بن أحمد بن الجوزي[29]

رابعا :الرسائل الإخوانية: يعد الشيخ محمد البكري بن عبد الرحمن من علماء توات الذين أولوا اهتماما بالغا، لعلاج الأمراض المستفحلة داخل المجتمع التواتي، حيث يحوي ديوانه العديد من الرسائل الأخوانية التي بعثها الشيخ لأحد أصحابه وهو من منطقة تيديكلت شرح فيها أسباب المرض وسبيل علاجه، كما ضمنها الكثير من العادات الغذائية السيئة كالإفراط في شرب الشاي وأكل لحم البقر [30]

5- ممارسة مهنة الطب في المجتمع التواتي:

يمكننا من خلال الفحص البسيط للوثائق المخطوطة المتاحة، يمكننا التنبيه إلى أن مهنة الطب الشعبي كانت منتشرة في بين فئات خاصة من المجتمع التواتي، يأتي في مقدمتهم العلماء الذين كانوا في العادة يجمعون بين مهنتي التدريس والإمامة والطب، وذلك من خلال اطلاعهم الواسع على خبرات الأولين، حيث برز منهم الشيخ محمد بن عبد الرحمن التنلاني والشيخ محمد بن عبد الكريم البلبالي، والفقيه عبد الرحمن بن أحمد الجوزي الذين يستنتج من مؤلفاتهم أنهما كانا يهتمان بالتطبيب، غير أن أهم شخصية جمعت بين العلم الشرعي والطب كانت الشيخ محمد البكري بن عبد الرحمن التنلاني الذي خصص فصول من ديوانه والعديد من مراسلاته للتداوي بالأعشاب والمستخلصات الدوائية، هذا بالنسبة للفئة الخاصة من المجتمع، أما العموم، فكان سكان كل قصر يلجأون إلى طبيب أو أطباء عند إصابتهم

28 محمد عبد الكريم البلبالي، مسائل ملتقطة من غاية الأماني في أجوبة أبي زيد التنلاني، خزانة مولاي سليمان بن علي ادغاغ.

29 – فهرسة خزانة آل الجوزي، تحت الطبع

30 –البكري بن عبد الرحمن ، ديوانه ص253

بالأمراض، كما يجب أن نعلم أن مهنة الطب كانت تشتهر بها عائلات بعينها، وقد تتخصص كل عائلة في معالجة داء معين كجبر الكسور ومعالجة المعدة وكي عرق النساء و قلع الأضراس والأسنان ...[31].

ويدعى هؤلاء في المنطوق المحلي بالحكماء لتوارثهم حكمة معالجة مرض معين أبا عن جد، لذا فان المرضى يرغمون في الكثير من الأحيان إلى السفر من مناطق بعيدة للتداوي عند الطبيب.

وتشتهر عائلات تواتية إلى الآن بالطب الشعبي كعائلة حبيبي بمنطقة تيمي التي تتوارث هذه الحرفة منذ زمن طويل وحققت الكثير من النجاحات فيها خاصة في مجال معالجة العقم وطب النساء عموما، كما تشتهر عائلة أخرى في منطقة بوعلي بزاوية كتنة بجبر الكسور باستخدام مواد محلية بسيطة، كما لا يخلوا قصر من قصور توات من محترف أو محترفة للعلاج بالكي لمعالجة ضعف الشهية لدى مختلف الفئات العمرية.

6- الصناعات الدوائية والطب الشعبي في منطقة توات من خلال الوثائق

أورد الشيخ محمد البكري بن عبد الرحمن في ديوانه الكثير من الخلطات الدوائية، التي كانت تستعمل في منطقة توات، لمعالجة العديد من الأمراض الشائعة، كما تشير الوثائق أيضا على خبرة أهل توات الواسعة في مجال خلط الأعشاب واستخلاص الأدوية، لاسيما أن البيئة المحلية وأحوازها تشتهر بنمو النباتات البرية ذات الفائدة الصحية، ونظرا لبعد الشقة بين التجمعات السكنية في منطقة توات كان المريض أو أهله يراسلون الطبيب المعالج ويصفون له أعراض المرض، فيقوم الطبيب بكتابة الدواء وفق الوصف المرسل، وهذا ما كون لدينا رصيدا لأبأس به من الوثائق التي تخدم دراسة هذا الموضوع الهام، كما هو الحال بالمراسلات التي كانت تصل الشيخ محمد البكري بن عبد الرحمن من أصدقائه في منطقة تيدكلت حيث كان يجيبهم ويسدي لهم النصح والإرشاد ويصف لهم الدواء [32]

7- أهم الخلطات الدوائية من خلال الوثائق :

علاج أمراض المعدة:

31 – من أهم هذه العائلات : عائلة حبيبي بتيمي وعائلة الحسين بانزجمير .

32 – البكري بن عبد الرحمن ، ديوانه،ص 253

في رده على رسالة أحد أصدقائه تعرض الشيخ البكري بن عبد الرحمن إلى مرض المعدة وأسبابه، حيث يأتي بحسبه من خلال تكدس الفضلات في المعدة، وهي فضلات مضرة يستوجب إخراجها بالتقيؤ لأنه صابون البطن، عن طريق شرب كميات معتبرة من الماء الساخن المملح مع التهييج باستعمال الأصابع أعلى الحلق، وحذر الشيخ صديقه من الإفراط في الأكل إذ من الأحسن أن يرفع يده عن الطعام وهو يشتهيه، كما منع الشيخ على مريضه أكل لحم البقر، لأنه لا يتناسب مع البيئة التواتية الحارة، التي يستحسن فيها أكل لحم الضأن والإبل والدجاج مع استحباب لحم ذكور هذه الأصناف عن إناثها، كما نبه الشيخ صديقه على بعض العادات الغذائية المضرة مثل أكل خبز القمح الصلب لما له من ثقل على المعدة، والإفراط في شرب الشاي لأنه يمتص رطوبة الجسم، كما أشر ايضا إلى ضرورة الصوم يوم الاثنين والخميس " لان الجوع يصحح البطن وبصحة البطن يصح الجسد"[33]

وتشير وثيقة أخرى، إلى بعض النصائح لضمان سلامة المعدة، حيث يستحب لها شرب ماء الليمون الذي يبيد شهوة المعدة، كما يستعمل الزعفران والرمان لدبغ المعدة وإعانتها على الهضم، فيما يوصف شراب النعناع والكمون . بحسب الوثيقة . لمرضى الانتفاخ وتكدس الغازات، ولعلاج القرحة المعدية التي تسميها الوثيقة بثقب الدم، حب التمر وبياض البيض إذا خلطا بالسويق، وكذلك الكمون ينقع في الخل يوما وليلة ثم يجري تجفيفه وتحميسه، كما يستعمل القطران وماء الكزبرة والبصل من اجل قطع الجشأ الحامض وحرقة المعدة، كما توصي الوثيقة المرضى الذين يعانون من هده الأغراض وخاصة الحوامل بمسك قطعة ذهب في الفم.[34]

علاج أمراض الكبد: تخبرنا وثيقة عثرنا عليها في زاجلو أن التواتيين كانوا يصفون بعض الأعشاب الطبية لأمراض الكبد حيث يصنفونها إلى صنفين كبد بارد وكبد حار فالكبد البارد يوصف له منها:

33 – نفسه، ص253

34 – وثيقة بخزانة سيدي علي بن حنيني، زاجلوا زاوية كنتة ، أدرار.

الزبيب الأحمر و السنبل الهندي والليمون شرابا وضمادا، أما الكبد الحار فيوصف له الزعفران وشحم سنام الجمل ونقيع الحمص والكرنب بالعسل وحب الخروع بالعسل[35].

علاج الصداع: تشير وثيقة أخرى في نفس الخزانة إلى خلطة لعلاج الصداع، حيث يطبخ الورد اليابس وزهر الحناء تعجن بالخل الحادق وتجعل ضمادا على الرأس فإنها تسكن الصداع، كما يستعمل له أيضا عصارة ورق الكرم والكزبرة الخضراء بعد استخلاص عصارتها فإنها تنفع مع الصداع الحار، أما الصداع البارد فيسكنه عود البخور ومرارة العنز والزعفران ويوضع أما شما أو شربا أو ضمادا في مقدمة الدماغ، كما توصي الوثيقة بضرورة الإكثار من أكل البصل سواء كان طازجا أو مطبوخا لمواجهة ضربات الشمس التي تودي إلى الصداع[36].

أما الصداع النصفي، المسمى محليا بالشقيقة، فتصف لها الوثيقة نبات الريحان شما وضمادات، وإذا رافق هذا النوع من الصداع دوار، فيوصف له حشيش الكزبرة، وورد في كتاب غاية الأماني خلطة عجيبة لعلاج الشقيقة حيث يجمع عود العنبر والأنوار (القرنفل) والكمون وورقة من التبغ، وشيئ من الملح ويسحق كل منهما ثم يجمع الكل ويوضع في خرقة نظيفة ويصر في صرة، فإذا احتيج التداوي به تجعل الصرة في الماء حتى ينحل فيحرك باليد حتى يذوب ويقطر منه في الأنف الذي يلي الشق المؤلم[37].

علاج البرص: يعد البرص من الأمراض الجلدية الوراثية الناجمة عن اضطرابات جينية المنتشرة في منطقة توات، حيث تعلو الجسم في مراحله المتقدمة بقع بيضاء اللون، وتشير الوثائق أن هذا المرض كان يوصف له مجموعة من الأدوية التي تحد من انتشاره، منها حب النيل وعسل البلاذر، وطلاء البصل تحك به المناطق المصابة، خاصة في مراحله الأولى، كما يوصف له قشر الليمون وبول الثور كما يجب على المريض أيضا أن يتوقى الرطوبات ويقلل شرب الماء ويكون غذاؤه الدجاج، ويوصف للبرص أيضا الطريلال

35 – وثيقة بخزانة سيدي علي بن حنيني، زاجلوا زاوية كنتة ، أدرار.

36 – وثيقة بخزانة سيدي علي بن حنيني، زاجلوا زاوية كنتة ، أدرار.

37 محمد عبد الكريم البلبالي، مسائل ملتقطة من غاية الأماني في أجوبة أبي زيد التنلاني، خزانة مولاي سليمان بن علي ادغاغ.

ويسمى بمصر رجل الغراب ويسمى أيضا جزر الشيطان، وحبه اقل من البقدونس، يطلى به جسد المصاب ويقف في الشمس ساعة وهو مكشوف البدن لمدة ثلاثة مرات.[38].

علاج الكلف والنمش: وهما مرضان جلديان يحصلان من جراء الاكثار من أكل البيض، حيث يوصف له بذر الفجل يخلط بالعسل، كما يستعمل له أيضا الترمس المر يمزج بالخل والعسل ويستخدم ضمادا على المكان المصاب كما يسحق له السنا المكي ويعجن ببياض البيض ويطلى به ليلا خمس مرات ..[39]

علاج أمراض العيون: يقول الشيخ محمد البكري بن عبد الرحمن أن أحسن دواء هو الأثمد لقوله صلى الله عليه وسلم (اكتحلوا بالاثمد ....)، حيث يستعمل للوقاية التهابات العيون للرضع والكبار على حد سواء، بحيث يرطب العين ويبردها، ويشترط أن تكون أيدي المستعمل نظيفة، كما يجب أن يحفظ في شروط حفظ مناسبة كحجرة صغيرة من الزجاج أو قصب بمغلاق من الجلد، ويكتحل بأداة نظيفة، ويوصى البكري بن عبد الرحمن بأن يكتحل بالاثمد عند النوم كما جاء في الهدي النبوي وقت انطبق الأجفان وسكون الحركة، حيث يغوص الاثمد في طبقات العين السبعة، ويشترط أن تكحل العين اليمنى ثلاثا واليسرى مرتين،[40]. .

علاج الكسور : يستخدم لجبر الكسور مستحضر من دقيق القمح والبيض وخلطهما مع طين حمراء خاصة تسمى (الحميرة) وتوضع كضماد على مكان الكسر بعد إعادته إلى مكانه الأصلي يدويا وربطه وتثبيته بالخليط والعصي الصغيرة وتسبب هذه العملية ألما كبيرا للمريض لانعدام أدوات التخدير حيث يلجأ في هذه الحالات إلى الاستنجاد بمساعدين لمسك المريض، وهذا العلاج يبدو فعالا، إذ في الكثير من الأحيان ينجح الطب الشعبي في جبر بعض الكسور التي تعجز عنها الوسائل الطبية الحديثة[41].

38 – وثيقة بخزانة سيدي علي بن حنيني، زاجلوا زاوية كنتة ، أدرار.

39 – وثيقة بخزانة سيدي علي بن حنيني، زاجلوا زاوية كنتة ، أدرار.

40 – البكري بن عبد الرحمن ، المصدر السابق، 184.

41 – بلعالم ، محمد باي ، الرحلة العلية ، ج 2، ص254.

الحجامة: عرفت الحجامة في المجتمعات الشرقية القديمة، وبظهور الإسلام أصبحت من أبرز أساسيات الطب النبوي، حيث يجري فصد الدم الفاسد من الموضع المقصود بالعلاج بواسطة كؤوس زجاجية أو فخارية صغيرة،تشعل داخلها فتيلة وتقلب الكاسة على الموضع المريض ويسحب منه الدم الفاسد عن طريق مشرط، ويوصى بأن تكون الحجامة في منتصف الشهر عند اكتمال البدر (الأيام البيض)، ويوصف هذا العلاج لألام الرأس وانتفاخ القدمين والبواسير وغيرها.

الطب الروحاني : يعد الطب الروحاني أحد أهم الطرق العلاجية الشهيرة في منطقة توات، حيث لا تقل عن العلاجات الأخرى التي تستخدم فيها المستخلصات الطبيعة، حيث تقام جلسات الرقية في المساجد والزوايا عن طريق قراءة بعض آيات القرآن الكريم، التي تحسن من الحالة النفسية للمريض، الذي يكون عادة به مس من الجن أو الحسد والسحر .

ويعد العلاج بالسحر والجداول، من أهم الطرق العلاجية التي يلجأ إليها عامة التواتيين، خاصة بعد التأكد من عدم عضوية المرض، وتذخر الخزائن التواتية بالكثير من الكتب والمخطوطات التي تعنى بهذا المجال، حيث صادفنا العديد من الأوراق الفردية التي تحمل بعض الطلاسم والعلاجات الروحية الممزوجة ببعض التركيبات العشبية والأدعية التي تعلق بشكل تمائم فمثلا: المرأة الحامل التي تسقط جنينها تعلق في تميمة بها : يا أيها الجني تفقدتك بالذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك أفق أفق بإذن الله حتى ياتيك شهرك المعلوم ..... ولا حول ولا قوة إلا بالله.

و في وثيقة أخرى حرز للمرأة التي لا يراد حملها به آيات : والحب ذو العصف والريحان رفع ثلاثها.. بنصب كاف والنون بالخفض ... أرهطي سما مولى ومالي سمالون ..... كما يعلق هذا الحرز على الدجاجة البيوض تبيض ما دام الحرز معلقا.[42]

ولعلاج العقم لدى الرجال يكتب في حرز ع ع ع ع ... لولو لاحح عه الحمد لله يعلقه الزوج بيده ثم يجامع فإن الزوجة تحمل وإن كانت عجوزا أن شاء الله ... قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت أنه حميد مجيد ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم[43].

42 – وثيقة من خزانة سيد الحاج بلقاسم ، زاوية الشيخ الحاج بلقاسم تيمممون

وتكتب بعض الطلاسم (للطهطبل مهطهطيل فهطيطيل فهطيطيل نههههطيل) وهي على التوالي :سبت . مشتري ، مريخ ، شمس ، زهرة ، عطار ، فجر .....) حيث تكتب للصلح بين المتخاصمين حيت تذاب في الطعام او الشراب في ساعة معلومة يوم الجمعة فإن الخلاف بينهما يزول كما تكتب أيضا للزوجة النشاز الدائمة الغضب [44]

الخاتمة :

وخلاصة القول، أن الطب الشعبي والصناعات الدوائية تعد تناج تكاتف الخبرات المجتمعية، حيث حافظت العائلات التواتية على هذه الحرفة وتمكنت عبر مرور الأجيال من تطويرها بفعل الانفتاح على خبرات المجتمعات الأخرى، وإن كان التوارث العائلي قد أسهم في الحفاظ على مثل هذه الحرف والصنائع فإن الوثائق تعد أيضا عنصر إسهام في الحفاظ على هذا التراث من الاندثار لذا فقد وجب الاعتناء بمثل هذه الوثائق وغيرها نظرا لوضعيتها الهشة وتعرضها في الكثير من الأحيان إلى الضياع.

المصادر والمراجع:

- التنلاني عبد الرحمن بن عمر: الرحلة الحجية ، مخطوط خزانة الشيخ باي بلعالم، آولف
- الجنتوري: عبد الرحمن نوازل الجنتوري، مخطوط بخزانة باعبد الله، تيمي، أدرار، الجزائر
- بن هاشم ن مولاي أحمد ، المحن والشدائد ، خزانة مولاي سليمان بن علي ، أدغاغ ، أدرار،
- محمد عبد الكريم البلبالي، مسائل ملتقطة، خزانة مولاي سليمان بن علي ادغاغ.
- البكري بن عبد الرحمن، ديوان سيدي البكري ، خزانة غوزي ، زواية سيدي البكري ، أدرار
- التنلاني عبد الرحمن: الرحلة من توات إلى الجزائر مخطوط بخزانة سيدي عبد الله البلبالي، كوسام، أدرار،
- مبارك جعفري: العلاقات الثقافية بين توات و السودان الغربي، دار السبيل، الجزائر، ط1، 2009م،

43 وثيقة من خزانة زواية الحاج بلقاسم

44 وثيقة من خزانة زاوية الحاج بلقاسم

- بليل رشيد: قصور قورارا، وأولياؤها الصالحون في المأثور الشفهي و المناقب و الأخبار المحلية، تر. عبد الحميد بورايو، منشورات المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ و علم الإنسان والتاريخ، الجزائر، 2008م
- أبو القاسم سعد الله : أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج2، ط1 ، 1990م
- محمد باي بلعالم: الرحلة العلية إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام و الآثار و المخطوطات والعادات و ما يربط توات من الجهات، دار هومه، الجزائر، ج1، 2005 م .
- محمد الصالح حوتية: توات و الأزواد خلال القرنين 12و 13 هـ دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية، دار الكتاب العربي، الجزائر، ج1،2007 م.
- الوزان الحسن، وصف إفريقيا: دار الغرب الإسلامي بيروت ، ط 2 ، 1983 م.
- تومي سعيدان: سكان تيديكلت القدماء والاتكال على النفس، دار هومة، الجزائر، 2005 م،
- عبد المجيد قدي: صفحات من تاريخ منطقة آولف، دار الأبحاث الجزائر، ط2، 2007 م،
- عبد الرحمن بعثمان القضاء في منطقة توات، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة وهران 2017،
- عبد الرحمن محمد بعثمان، نظام السقي في الجنوب الغربي الجزائري: نظام الفقارة في منطقة توات أنموذجًا، دراسة من خلال المصادر المحلية.– دورية كان التاريخية (علمية، عالمية، مُحكَّمة).– العدد الثاني والعشرون؛ ديسمبر 2013.